فلسفة شـــوبنهور

للاستاذ زكى نجيب محمود

عصره :

سادت فى أوروبا روح التشاؤم فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وتملكت النفوس يأس قاتل ، وارتفعت بذلك أصوات الشعراء والفلاسفة فى كل ناحية من نواحى القارة : بيرون فى انجلترا ، ودى موسيه فى فرنسا ، وهيى وشوبنهور فى ألمانيا.

ولقد يقف المرء أمام هذه الظاهرة العجيبة وقفة لا تطول كثيرا حتى يجد أسباب ذلك فى طبيعة ذلك العصر وظروفه التاريخية : فقد انفجرت الثورة فى فرنسا ودوت فى أرجاء أوربا دوياً اهتزت من هوله عروش ، وكان لصوتها صدى فى كل الصدور وأثر عميق فى كل النفوس ، فمن أشراف ناقمين ساخطين ، الى زراع يهللون لها ويكبرون ... ثم كانت واقعة وترلو فخفت ذلك الصوت الداوى ، وعزل نابليون على صخرة سنت هيلانة الصامتة الموحشة فى عرض المحيط ، وعاد (البوربون) الى ملكهم فى فرنسا ، وعاد فى ذيلهم أشراف الأقطاع يطالبون بأملاكهم ، وانتشرت فى أوربا حركة رجعية تعمل على طمس معالم الثورة والتجديد .

كم من ملايين الشباب زهقت نفوسهم عبثاً ، وكم من عامر الأرض بات خرابا بلقعاً ... فكنت لا ترى على وجه أوربا إلا آثاراً خربة وأنقاضاً هنا وهناك ، ذلك لأن الجيوش النابليونية الجرارة من ناحية ، وأعدادها من ناحية أخرى ، أخذت تروح وتجىء أكثر من عشرين سنة قضت فيها على الأخضر واليابس ، وخلفت القرى والمدائن يتابها فقر مدقع وبؤس شامل .

ماتت الثورة الفرنسية وكأنما انتزعت معها روح الحياة من أوربا ، لأن قلوب الشباب الطامح فى كل بقعة من بقاعها كانت قد صعدت الى الجمهورية الناشئة وعاشت فى ظلال الأمل الوارفة حيث أملت فى مستقبل ذهبى سعيد ، فما هى إلا أن وقعت الواقعة فى وترلو حتى تحطمت كل هذه الآمال وتبددت بمأساة سنت هيلانه ومؤتمر فينا ، فدبت فى النفوس روح اليأس التى ملكت على الناس شعب الحياة ، وأثر ذلك فى النزعة الدينية أثرين مختلفين : أما الطبقة الفقيرة الجاهلة فقد التجأت الى الدين تجد فى كنفه السلوى والعزاء ، وأما الطبقة المفكرة فطغت على قلوبهم موجة إلحادية ، ولم تعد عقولهم تسيغ أن يكون ثمة مدبر أعلى لهذا الكون .

فأما فريق العقيدة والدين فقد اقتنع بأن هذه النكبات ليست إلا اذلالا للنفوس جزاء وفاقا بما نزعت اليه من الاعتزاز بحكم العقل ونبذ العقائد وراء الظهور . وأما فريق الالحاد فقد ارتأى أن اضطراب أوربا بنهض دليلا قوياً على فوضى الحياة وعبثها ، وعلى رأس هؤلاء بيرون وهيى وشوبنهور.

فلسفته :

١ — العالم فكرة

يرى شوبنهور أن الوساطة الوحيدة بين الانسان والعالم الخارجى هى الحواس والمشاعر ، فأنت اذا رأيت شجرة انطبعت صورتها فى ذهنك وهذه الصورة انما انتقلت عن طريق عدسة العين ، فقد تكون مطابقة لحقيقتها الخارجية وقد لا تكون ، وقل مثل ذلك فى كل معلوماتك عن أجزاء الوجود ؛ فالصورة التى كونها ذهنك عن هذه الدنيا هى فكرة خلقتها حواسك ولا يتحتم أن يكون لها حقيقة واقعة مطابقة لها . واذن فالانسان كما يقولون دنيا نفسه ، وأن فى الوجود من الدنى بمقدار ما فيه من عقول بشرية .

يخلص شوبنهور من هذا بأن الواجب الأول هو دراسة العقل قبل البدء بدراسة المحسوسات ، لأن فى دراسة العقل المفتاح الذى نصل به الى حقائق الوجود الخارجى .

٢ — العالم ارادة

يكاد يجمع الفلاسفة على أن كنه العقل وجوهره هما الشعور والفكر ، الا أن شوبنهور يرفض ذلك رفضاً ، ويقول بأن الشعور إن هو الا قشرة خارجية لعقولنا لا يعرف على وجه الدقة ما تحويه فى باطنها ، فهذا الغلاف المفكر يخفى وراءه ارادة لا شعورية ؛ لا يحمد لها نشاط ؛ ولا تنتهى لها رغبات وآمال ، وهى التى تملك زمام الانسان فى كل حركاته وأعماله ، أما هذا المنطق الذى نحتكم اليه فى كثير من شئوننا ، والذى يخيل الينا أنه نابع من العقل الواعى ، هو فى الواقع ملجم بهذه الارادة الباطنية : فنحن لا نريد الشىء لأن هناك من الأسباب المنطقية ما يدفعنا الى ذلك ، ولكننا نخلق الأسباب خلقاً اذا كنا نريده ارادة لا شعورية . فالأسباب نتيجة لا مقدمة !! بل نستطيع أن نذهب الى أبعد من هذا الزعم فنقول : إننا انما نخلق الفلسفات ونبتدع الديانات لنخفى فى طياتها رغباتنا الخفية.

ابحث فى كل نواحى النشاط الانسانى ، تجد دوافعه مشتقة من الارادة اللاشعورية لا من العقل والشعور . فهذا التناسل والتناحر

على أسباب العيش من طعام ولذات . انما ينبع من «ارادة الحياة» التي يطنها كل كائن في طوايا نفسه ، حتى شخصية الفرد لا تتكون من أعماله العقلية ولكن من نزواته اللاشعورية التي يندفع اليها بارادته الخفية : ومن هنا كانت الديانات على اختلافها تعد الجنة للارادة الطاهرة (أي القلوب) ولكنها لا تعترف بالعقول الكبيرة ولا تحسب لها في جنانها حسابا .

وليست سيطرة الارادة مقصورة على الحياة الفكرية ، بل تتعداها الى الدائرة الفسيولوجية . فارادة الحياة خلقت أوعية يجري فيها الدم . وارادة المعرفة خلقت مخا يصل الى شتى المعارف ، وارادة القبض على الأشياء خلقت الايدي ، وهكذا نشأ كل عضو بعد نشوء ارادة وظيفته ، فحركات الجسم هي في الواقع ارادات مجسمة بل الجسم كله إرادة متبلورة .

إذن فالارادة ، لا العقل ، هي كنه الانسان بل كنه الكائنات الحية جميعا ، هذه الارادة التي نتحدث عنها هي ارادة الحياة ، وليس الحياة أيا كان لونها ، ولكن «ارادة الحياة الكاملة» .

وليست هذه الارادة مقسمة بين الأفراد أعني ليس لكل فرد ارادته المستقلة تعيث به كيف شاءت ، ولكنها ارادة واحدة تتناول الحياة بأسرها كتلة واحدة وشيئا لا يقبل التجزئة ، فالفرد ليس حقيقة في ذاته ولكنه ظاهرة لحقيقة ، فهو جزء من كل متماسك ، ومحتوم عليه بحكم ارادته أن يسير في طريق مرسوم حتى لا يضطرب نظام ذلك الكل المتحد . ومن هنا نشأت رغبة التناسل مثلا ، فهي ليست رغبة فردية ، ولكنها رغبة الحياة بأسرها وهي وحدها التي تسخر الافراد لصالحها بل ان هؤلاء الافراد هم الصورة المجسمة التي تظهر فيها ارادة الحياة .

يقول سبينوزا : لو أن حجرا ألقي في الهواء وكان لديه شعور وإدراك لظن أنه انما يتحرك بمحض ارادته الحرة وانه هو الذي يختار الزمان والمكان اللذين يقع فيهما . وما أشبه الانسان في حياته بذلك الحجر الملقى : كلاهما تدفعه قوة خارجية وكلاهما يتوهم أنه حر لا سلطان على ارادته .

نعم ، ارادة الحياة في عمومها حرة التصرف لأنه ليس هناك ارادة تحد تصرفها ، ولكن كل قالب من قوالب الحياة ، أي كل جسد مادي يدب فيه جزء من الحياة ، محدود ولا ريب بتلك الارادة الكلية سواء أكان ذلك القالب الحي نوعا أم فردا أم عضوا من فرد .

٣ — العالم شر

مادامت الارادة أساس الحياة ، فالحياة شر كلها . ذلك لأن الارادة منبت لسلسلة من الرغبات لا تنقطع . والرغبة عادة تمتد إلى أكثر مما يستطيع الانسان تحقيقه : وهكذا يظل الانسان مدفوعا في حياته بآلاف الدوافع من الآمال التي ان تحقق بعضها فمعظمها خائب فاشل ، وهو أمام هذا الفشل الذي يغمره في كل خطوة يخطوها يستحيل عليه أن يتذوق في حياته سعادة مطلقة . ثم هو لا مناص له من هذه الرغبات التي يسوق بعضها بعضا ، لأن جوهر الانسان ارادة كما بينا ، فاذا هو تخلص من ارادته فقد تخلص من نفسه : ولا بد لهذه الارادة أن تعيش وتتغذى . وهذه المطامع المستمرة في حياة الفرد هي الوقود الذي تخلقه الارادة لنفسها .

والحياة كلها شر كذلك . مادامت الآلام هي طبيعة مادتها التي تتكون منها ، وليست السعادة إلا حالة سلبية يقف فيها تيار الآلام . وما اصطلاحنا على تسميته بالسعادة انما هي الحالة التي ينعدم فيها وجود الألم ، أعني أن ليس ثمة سعادة ايجابية . وقد أشار ارسطو الى هذه الحقيقة بقوله ان الحكيم لا يجوز له أن يبحث عن السعادة ، بل يجب عليه أن يسعى وراء التخلص من آلامه .

وفوق هذا كله ، فالحياة شر كلها لأنها عراك دائم ، فأينما سرت صادفت تناحرا وتنافسا وجهادا . فكل نوع يقاتل في سبيل المادة والزمان والمكان .

نعم لا ريب في أن الحياة قاسية مؤلمة ، وليس يعجب شوبنهور إلا من متفائل يبتسم لهذا العالم ، ويقول لو أن أشد الناس تفاؤلا طاف بالمستشفيات والسجون وساحات الحروب ليشهد ألوان الألم والعذاب . ولو أنه رأى البؤس الذي يتوارى خجلا في أركان الأكواخ المظلمة . نعم لو أبصر هذا وذاك وما هو شر من ذلك جميعا ، لانقلب متشائما يؤوسا على الفور . وإلا فحدثني بربك من أين اشتق داتي صورة جحيمه إلا من هذا العالم الذي نعيش فيه ، ومع ذلك فقد كونها صورة ما أهولها من صورة !! ثم انظر كيف اصطدم بمشكلة سقطت أمامها عبقريته عجزا واعياء عندما أراد أن يصور جنة سعيدة ، لأنه التمس من الحياة اجراء الصورة التي يريد فعز عليه المثال !! .

٤ — الفلسفة

رأينا كم يدفع المرء من الشقاء ثمنا باهظا لأنفاسه ! وعلمنا أن الحياة بما تحوي من شر تجارة خاسرة لا تساوي ثمنها !! .

ولكن ألا نستطيع أن نرسم طريقا للسعادة ؟ ذلك ميسور اذا تغلب جانب العقل والمعرفة على جانب الارادة والرغبة من الانسان . فأنت عاجز عن ادراك السعادة اذا تملكتك الارادة منك

(البقية على صفحة ١٥)